الأبعاد الإصلاحية في أدب الإمام محمد البشير الإبراهيمي
المقال الاجتماعي . أنموذجا .

د. إسماعيل ونوغي جامعة المسيلة

الملخص: لقد تميز نثر الشيخ الإبراهيمي في معظمه بسمة الإصلاح, إذ هو مصلح الأمة ورائد نهضتها وباعث الحياة في أجياله المتعاقبة. وتعدُّ مقالات عيون البصائر جواهر ثمينة وقطع فنية خالدة, وإن المطلع عليها يجد فيها المتعة والنفع الوفير اللذين لا يجدهما في غيرها، وتمثل طرازا ثقافيا فريدا من نوعه وتصف فنا يمثل حلقة وصل بين التراث الأدبي العربي القديم، وبين الإنتاج الأدبي الحديث والمعاصر.

الكلمات المفاتيح: نثر . الشيخ الإبراهيمي . الإصلاح . عيون البصائر .

Résumé:

Prose de Cheikh Ibrahimi a été marquée et caractérisé principalement pour la réforme Il est le reformeur de la nation Et le Commandant de sa Renaissance et l'Emetteur la vie dans les générations successives. Les articles d'(Ouyoune elbassayere) yeux Insights sont des bijoux précieux et des pièces d'art Eternel Qui l'a lu Trouve du plaisir et bénéfice qui ne trouvent pas dans d'autres. Elle représente un style culturel Unique. Elle Descript un art qui représente un lien entre l'ancien patrimoine littéraire arabe, Et entre la production littéraire moderne et contemporain.

mots clés : *Prose - Cheikh Ibrahimi – réforme - yeux Insights*

منطلق: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ, لا شك في أن التاريخ الحافل بالنجاح هو العمود والأساس الذي تقوم عليه كينونة أية أمة من الأمم، والأمة التي عدمت تاريخها تعدم بالضرورة وجودها وهويتها, وتعدم حاضرها ومستقبلها كذلك، والتاريخ لا يضعه فرد بعينه بقدر ما يساهم في صنعه غالبية أفراد الأمة والمجتمع، وإن تباينت مساهمات كل واحد منهم تبعا للقدرة والإمكانات ومجال الاختصاص، فالمجاهد يقدم نفسه وماله فداء للوطن, والأديب يقدم عمله الإبداعي والفني سواء أكان نثرا أم شعرا خدمة للأدب، فإذا قيظ الله ريشة فنان مبدع، وعقل مفكر مقنع, صاغ من تلك الوسائل طرزا رائعا، ولا شك في أن الناس في حاجة إلى أن يقرؤوا ويفهموا ويتذوقوا الأدب ويستمتعوا بجماله, فالأدب قريب التناول من القارئ يستطيع كل واحد أن يتذوقه بفكره وعواطفه فيستفيد منه ويستمتع به.

وليس لكل من تعمق في اللغة وعرف أسرارها أن يرقى بالأدب الذي يحتفظ بجمال الصورة ورونق الأسلوب وعذوبة الألفاظ، بل عليه أن يتخير المعاني الكريمة ويؤديها بالألفاظ العذبة المعبرة الموحية إلى ما يريده الكاتب ويفهمه العام والخاص.

والأدب عند طه حسين على سبيل المثال هو فنّ رفيع، والفنّ الرفيع لا ينزل عن مستواه وإنما يرقى إليه طلابه ومحبوه, وليس الأدباء مكلفين بأن يعلموا الناس ويبلغوا بهم من الثقافة والعلم إلا حين يستطيعون أن يتذوقوا الآداب الرفيعة والفنون الجميلة، وإنما يطلب ذلك من الذين يقومون على شؤون التربية والتعليم.

والحديث عن الأدب بشكل عام يؤدي إلى الالتفات للأدب الوطني الجزائري بشكل خاص، وهو بطبيعة الحال قديم، وذلك نظرا لأصالة الشعور بالوطنية وحب الوطن والتضحية بالنفس والنفيس من أجله، وقد عرف هذا النوع

من الأدب منذ عهد قديم وقد مرّ بعصور أدبية كثيرة إلى العصر الحديث الذي ازدهر فيه كثيرا بفعل ظروف وأسباب ساعدت على ذلك، ولعل من أهمها تعرض الكثير من البلاد العربية للاستدمار والقهر السياسي والاجتماعي الذي كان يمارس ضد الشعوب العربية, والجزائر أبرز شاهد على ذلك, فتنوعت ألوان الأدب بموجب ذلك، وتباينت الخطب وكثرت القصائد وظهرت فنون أدبية كثيرة كان لها أثر بالغ في تلك الفترة، كما برز أدباء جزائريون كان لهم أثر كبير في النهوض بالأدب الجزائري إلى مراتب عالية.

وقد شاع من الألوان الأدبية في الجزائر فنّ المقال الذي تطور بتطور الصحافة المكتوبة على وجه الخصوص ومن هنا نقف عند أحد أعمدة ومقامات الإصلاح في الجزائر وهو الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي الذي تنوعت مقالاته بين الإصلاحية والاجتماعية والدينية وغيرها، والداعية إلى التمسك بالأخلاق الإسلامية وبروح العقيدة ونبذ كل ما هو خارج عنها, ولعل هذه الكتابات الهادفة الكثيرة جعلتني أختار ما رأيته مهما في هذا المقال وموضوعه: الأبعاد الإصلاحية في أدب الإمام البشير الإبراهيمي مركزا على المقال الاجتماعي لأهميته وخطورته.

ومضات من شخصية الإمام محمد البشير الإبراهيمي(ت1306هـ . 1965م):

تعدّ شخصية الإمام محمد البشير الإبراهيمي عظيمة من حيث مولدها ونشأتها وحياتها وآثارها, وعلى الخصوص إذا نظرنا إلى هذه الشخصية من حيث وضع الجزائر الاجتماعي والسياسي والديني والفكري وظهور بوادر الإصلاح في الوطن العربي ونشوء النزعة الإصلاحية في الجزائر.

لقد كان الإمام الإبراهيمي عظيما بعقله ووجدانه، وبقلبه ولسانه، فكل من تقلب في أعطافه نال من ألطافه، فالقريب والرفيق، والسائل والمحروم، والمريد

والتلميذ يجد فيه الأب الشفيق والأخ الصديق الذي لا يبخل بجهده وجاهه وماله لتفريج الكروب وتهوين الخطوب، وكان من الخصال البارزة فيه؛ الإيثار والحلم والوفاء، وفي بعض من جوانب شخصيته يقول أحد رفاقه الأستاذ أحمد توفيق المدني(ت1404هـ . 1983م) عندما تبوأ الإمام الإبراهيمي كرسيه في مجمع اللغة في القاهرة: « فتقدم الإبراهيمي الأمين يحمل الراية باليمين لا يأبه بالمكائد ولا السجون ولا يبالي بالمنافي في الفيافي بل دخل المعمعة بقلب أسد ووضع ميزان القوى المتشاكسة يومئذ.»[1] ومن تلك الصفات التي أودعها الله فيه:

1. علم غزير فياض متعدد النواحي عميق الجذور.
2. اطلاع واسع عريض يخيل إليك أن معلومات الدنيا قد جمعت عنده.
3. حافظة نادرة عز نظيرها.
4. ذاكرة مرنة طيعة جعلت صاحبها أشبه ما يكون بالإنسان الإلكتروني أو كدائرة معارف جامعة سهلة التناول من علوم الدين التي بلغ فيها مرتبة الاجتهاد بحق إلى علوم الدنيا مهما تباينت واختلفت إلى شتى أنواع الأدب بين منظوم ومنثور إلى تاريخ الأمم والدول إلى أفكار الفلاسفة والعلماء من كل عصر ومصر إلى بدائع الملح والطرائف والنكت وكل ذلك انسجم مع الذكاء والنظر النافذ الذي يخترق أعماق النفوس وأعماق الأشياء.
5. فصاحة اللسان وروعة البيان وإلمام شامل بلغة العرب لا تخفى عليه منها خافية، وملكة في

التعبير مدهشة جعلته يستطيع معالجة أي موضوع ارتجالا على البديهة سواء أكان شعرا أم نثرا.

[1] مجلة مجمع اللغة العربية, القاهرة، عدد24 يناير: 1969م . بتصرف .

6. دراية كاملة بجميع ما في الوطن الجزائري من أحداث، يحدثك حديث العليم الخبير عن أصول سكانه وقبائله وأنسابه ولهجاته وعادات كل ناحية منه أخلاقها وتقاليدها وأساطيرها الشعبية وأمثالها وإمكاناتها الاقتصادية وثرواتها الطبيعية. وكل ذلك توج بإيمان صادق وعزيمة لا تلين وذهن جبار منظم يخطط على وعي وينفذ على حكمة وقوة دائبة على العمل لا تعرف الكلل والملل.[1]

لقد كانت كتابات الإمام الإصلاحية هادفة ولها دورها الفعال في خدمة اللغة العربية, وأهم ما ميز هذه الكتابات المقال الاجتماعي وذلك من خلال أرائه وصموده تجاه الظروف والأوضاع الاجتماعية آنذاك، فله مواقف واضحة وصريحة من الزواج وعلماء الدين والطرقيين والشباب والتعليم وغير ذلك.

كتاباته الإصلاحية ودوره في خدمة اللغة العربية:

1) خطّ الإمام الإصلاحي: يعدّ الإمام محمد البشير الإبراهيمي من المنظرين للفكر الإصلاحي في الجزائر وقد تميز بأسلوبه الرفيع, إذ كان يفضل تسخير هذا الأسلوب الجميل الشديد التأثير في القراء والمتلقين, ولعل أول كتابة له كانت أهلا لأن يطلق عليها صفة التنظير الإصلاحي دبجها عام خمسة وثلاثين وتسع مائة وألف (1935م) وهي (مقدمة سجلّ جمعية العلماء المسلمين) فقد كان يتحدث فيها بتفصيل دقيق على امتداد سبعين صفحة عن نشأة الحركة الإصلاحية في الجزائر وعوامل منشئها وموقف الإصلاحيين من رجال الطرق الذي كانوا يفسدون العقيدة الإسلامية ويشوهونها في رأي المصلحين من محمد عبد الوهاب إلى عبد الحميد ابن باديس[2] وقد نشر هذا

[1] أحمد طالب الإبراهيمي، **آثار الإمام الإبراهيمي**, ج1، ص16 . بتصرف .

[2] عبد المالك مرتاض, **أدب المقاومة الوطنية في الجزائر(1830م .1962م)** دار هومة، الجزائر, ص367 . بتصرف .

الكتاب في قسنطينة عام1936م، وهو أفضل وثيقة مكتوبة للحركة الإصلاحية في الجزائر قبل الحرب العالمية الثانية. وبرزت في هذا الكتاب موهبة الإبراهيمي الأديب لأول مرة على ذلك النطاق البعيد، وبذلك المستوى الرفيع، وعلى ذلك النفس الطويل[1].

وثاني الكتابات الإصلاحية للإمام الإبراهيمي والتي نلمس فيها شيئا من التنظير لحركة الإصلاح الديني في الجزائر، هي تلك النقلات التي كان يهاجم فيها الطرقيين بعد المؤتمر الثاني لرجال الزوايا الذي انعقد سنة1948م بالجزائر بعد مؤتمرهم الأول الذي انعقد عام1938م، وهو المؤتمر الذي شارك فيه بضعة آلاف من الرجال.

وكان الإمام في كتاباته الإصلاحية يعمد التنظير في أصول الشريعة الإسلامية، كما تمتع بحافظة نادرة، وأحب الأدب العربي القديم فنهل من حياضه ما شاءت نفسه وطموحه، وحفظ دواوين الشعراء، ومتون اللغة وخزائن الأدب والشواهد، وبذلك بهر المعاصرين في المشرق والمغرب بحفظه واستحضاره ذخائر التراث وقد ظهر ذلك على لسانه وقلمه، لم يؤلف الكتب لأن وقته كان مكرّسا لتكوين الرجال وهم تلاميذ في الأدب وخطباء في النوادي وأنصار في المجتمع, وحين أجبر على الإقامة في مدينة أفلو قضى وقته في نظم الأراجيز ووضع الأسجاع وتأليف القصص العربية مثل رسالة الضب وكاهن الأوراس, والأدباء الثلاث، ولما رجعت البصائر إلى الصدور سنة1947م تولى هو تحريرها، وكتب فيها المقالات الطوال في شؤون الحياة والدين والسياسة ولكن بعضها كان نماذج من الأدب الطليّ الذي تكلف فيه، وخرج فيه عن مألوف المقالة العادية، وكانت له أسبابه في ذلك, وقد اختار ما

[1] عبد المالك مرتاض, **أدب المقاومة الوطنية في الجزائر**، ص368 . بتصرف .

رآه خالدا من تلك المقالات لما فيها من قيم بلاغية وأخلاقية وأدبية نشرها تحت عنوان (عيون البصائر) وهي عيون ليس من حيث موضوعاتها الهامة فحسب, ولكن من حيث أسلوبها النادر الجميل[1]. ومن مساهماته أيضا في هذا الميدان مقالاته القصيرة التي نشرها تحت عنوان (سجع الكهان) وهي قطع من الأدب والصرف، ورجع فيه إلى أساليب العرب القديمة في صوغ السجع على لسان الكهان، واستعاد فيه صوغ اللغة وإشراق الأسلوب مع معالجة موضوعات حديثة، وكان الكثير من التلاميذ في المدارس والمعلمين وهواة الأدب الراقي يحفظون تلك الأسجاع عن ظهر قلب ويتهادون بها ويقلدونها لطرافتها وجمالها وارتباطها بالحياة المعاصرة. والغالب أن الإبراهيمي كان يلجأ إلى الأسلوب غير المباشر, فيستعمل الرموز ويديرها بالتورية على لسان كاهن من أهل الحي أو كاهن الحي نفسه، كما كان يطلق عليه[2].

وهناك مقالات عادية لكنها تميزت بأسلوب أدبي دافق، ونشير هنا إلى مقالاته عن الشباب الجزائري، كما مثلته له الخواطر, ومقالته عن إضراب جامع الزيتونة، ومقالته في عبد الحي الكتاني وغيرها، ولما سافر إلى المشرق سنة1952م زار عدة بلدان عربية وإسلامية، وكان لا يجد وقتا لتحرير المقالات التي اعتاد عليها القراء في الجزائر وغيرها، إما لابتعاده عن أوضاع البلد وإما لكثرة انشغاله وتنقلاته وتوافد زواره وإما لتقدم السن به ومعاناته من بعض الأمراض، ولكنه مع ذلك لم ينقطع عن البصائر إذ كان يرسل إليها من حين لآخر مقالات نموذجية سماها (من نفحات الشرق).[3]

---

[1] أبو القاسم سعد الله, **تاريخ الجزائر الثقافي** (1930م-1954م) ط1، دار الغرب الإسلامي: 1998م،ج8, ص82-83.

[2] أبو القاسم سعد الله, **تاريخ الجزائر الثقافي**, ص82-83 . بتصرف .

[3] المرجع السابق, ص86 . بتصرف .

2) دوره في خدمة اللغة العربية: للإمام الشيخ الإبراهيمي دور هام في خدمة اللغة العربية، فقد كان من أوسع أهل زمانه علما ومن أشدّ الناس غيرة على اللغة العربية، فقد انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وكان يهتم أشد الاهتمام بنشر اللغة العربية وتعميم تدريسها في المدارس ورفع مستواها مابين الناشئة، التي يقوم عليها مستقبل الأمة[1].

ونادى الإمام الإبراهيمي بضرورة استرجاع اللغة العربية في تلك المرحلة وإحلالها محل اللغة الفرنسية في الجزائر، وقال الإبراهيمي في ذلك: « اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية ولهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان كل منهما يقتضي وجوب تعلمها فكيف إذا اجتمعا.»[2] وهما حق العروبة والإسلام.

تركيز جهود الإمام البشير الإبراهيمي على الإصلاح: إن الإصلاح هو الغاية السامية من إرسال الله تعالى الرسل إلى الناس، قال شعيب عليه السلام في القرآن الكريم لقومه الغارقين في الضلال والفساد في العقيدة والسلوك:﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[3] ويضطلع بمهمة الإصلاح لشؤون البشر . بعد مصلح الإنسانية الأعظم محمد صلوات الله وسلامه عليه . علماء الأمة

---

[1] حنا الفاخوري, **تاريخ الأدب في المغرب العربي**، دط, دار الجيل, بيروت, لبنان، دت, ص657.

[2] عبد الكريم بوصفصاف, **جمعية العلماء الجزائريين المسلمين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى** (1931م .1954م) **دراسات تاريخية وإيديولوجية مقارنة**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ص71.

[3] هود88.

الإسلامية، عملا بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود والترمذي وغيرهما: «العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر.»[1]

والإصلاح الديني المنشود هو عمل وقائي وعلاجي، ويتمثل في مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي أمانة في ذمة المؤمنين مادامت السماوات والأرض قال الله تعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [2] وقال عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3] ومعنى هذه الآية الكريمة الجامعة أن الإصلاح وقبول الإصلاح مفروض على كل مؤمن ومؤمنة ولكن قيادة العمل الإصلاحي للجماعات والشعوب والأمم لا يتولاه إلا من أوتي الأمانة والكفاءة [4] إسوة لما جاء في القرءان الكريم على لسان يوسف عليه السلام، إذ رشح نفسه ليتحمل مسؤولية الشؤون المالية والاقتصادية بأرض مصر بعد أن أحس بتقدير الملك لمواهبه[5] قال عز وجل: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[6].

---

[1] البغوي, **شرح السنة**، ج1، ص276.

[2] آل عمران110.

[3] التوبة71.

[4] أحمد طالب الإبراهيمي, **آثار الإمام الإبراهيمي**، ج2، ص8.

[5] المرجع السابق نفسه، الجزء نفسه, الصفحة نفسها . بتصرف .

[6] يوسف 54 . 55.

وقد أوتي القائد الثاني للحركة الإصلاحية في الجزائر الإمام الشيخ الإبراهيمي مثل سلفه الشيخ ابن باديس من شروط القيادة ما جعله بحق يحظى بمكانة مرموقة في فقه الإسلام وعلومه، وملك ناصية اللغة وأدبها وفنونها واستيعاب تاريخ الأمة الإسلامية ومذاهبها في الشؤون الدينية والاجتماعية، فاستحق بكل ذلك وغيره من الكمالات, العضوية في المجامع العلمية واللغوية بدمشق والقاهرة وبغداد، وتقدير الأوساط العلمية والأدبية والسياسية في بلده الجزائر وفي المغرب والمشرق, وقد قال فيه الفيلسوف المرحوم الأستاذ منصور فهمي حينما استمع إلى محاضراته: «إن هذا المنبر الذي يقف فيه الشيخ ساحة مقدسة ينبغي أن يدخلها الناس كما يدخلون الحرم.»[1] وقال: «إنه لم يسمع ولم ير في حياته من هو أفصح أو أبلغ من الشيخ الإبراهيمي ودعا جميع العلماء والأدباء في الوطن العربي إلى أن يلقوا إليه مقاليد اللغة والبيان...»[2] ثم خاطب الشيخ قائلا: «أنت ملك العربية لهذا العصر، ملكت ناصيتها ونواصينا.»[3] وبعد ذلك أعلن الأستاذ كامل الكيلاني المبايعة. وكتب الإمام الشهيد سيد قطب مقالا ينوه فيه بجهاد جمعية العلماء المسلمين ورئيسها الشيخ الإبراهيمي جاء فيه: « لقد وجه الاستعمار همّه في الجزائر إلى سحق العقيدة وسحق اللغة، وعن هذا الطريق كاد يصل إلى غايته، فلما انتفضت الجزائر بالحياة كانت العقيدة هي المشعل الذي أضاء لها الطريق، وكانت اللغة هي الحبل الذي تتماسك به الجموع الشاردة في الظلام وإني لأكتفي اليوم بهذه الكلمات القلائل تحية لجمعية علماء الجزائر وشيخها الجليل الذي يجارنا اليوم، فيبعث فينا روحه القوية شعاعا حارا، ويشعرنا بأن في العالم الإسلامي رجالا... رجالا من طراز

[1] أحمد طالب الإبراهيمي, **آثار الإمام الإبراهيمي**، ج2، ص8.

[2] المرجع الساق, الصفحة نفسها.

[3] المرجع الساق, الصفحة نفسها.

فريد ولن يموت هذا العالم ويبعث من أعماقه هؤلاء الرجال.»[1] كلام رائع يشيد فيه بعظمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلى رأسهم الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي, ولا يعرف قدر العظام إلا عظيم.

المقالة في النثر الجزائري: عرفت الجزائر كغيرها من البلدان العربية فن المقالة، الذي بدأ ضعيف المستوى والأسلوب بسبب الحواجز التي حالت دون تطوره نذكر منها الضغط الاستعماري على الصحف: « حيث كانت الإدارة الاستعمارية توقف أي صحيفة لا ترضيها لهجتها أو اتجاهها.»[2] وكذا الجهل الذي كان يطبع المجتمع، ولكن سرعان ما تطور هذا الفن فيما بعد لظروف كثيرة.

وقد ترعرعت المقالة في الجزائر ونمت أركانها في أحضان الصحافة, ذلك: « لأنها وعاء المقالة والوسيلة التي تقدم بها إلى القراء.»[3] فلم يكن لها منشأ غير الصحافة العربية الجزائرية: «التي اتخذت من اللغة العربية لسانا لها وفتحت المجال واسعا أمام المبدعين والكتّاب في مطلع القرن العشرين لنشر أفكارهم وآرائهم.»[4] فظهر كتّاب بارعون نهضوا بالمقالة، فانتعشت بأقلامهم وتطورت بكتاباتهم, ولعل أبرز الذين طوروا هذا الفن في العقود الأولى من هذا

---

[1] مقال من جريدة البصائر، العدد 214، في07جمادى الأولى1372هـ . الموافق ل23 يناير: 1953م، ص01.

[2] أنيسة بركات درار, **أدب النضال في الجزائر**:1954م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر:1985م، ص165.

[3] حامد حنفي داود, **تاريخ الأدب الحديث**، تطوره معالمه الكبرى مدارسه، ديوان المطبوعات الجامعية، ص158.

[4] محمد ناصر, **المقالة الصحفية الجزائرية**، المؤسسة الوطنية، الجزائر: 1978م، ج1، ص32.

القرن، قدور بن عمر، وسعيد الزاهري، وعبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي... وغيرهم كثير, كما ساعد على هذا التطور والانتعاش بعض التأثيرات الأخرى كأثر الصحافة المشرقية في الصحافة الجزائرية وذلك نتيجة الاحتكاك بالشرق وآدابه وفنونه.

المقال الاجتماعي عند الشيخ البشير الإبراهيمي: إن مقالات الإمام الإبراهيمي الاجتماعية كثيرة من حيث العدد ومتنوعة من حيث النمط، ومن هذه الأنماط المقالة الاجتماعية الوصفية كمقالته عن العيد وأثره في النفس والمجتمع، وكذلك المقالة الاجتماعية الشخصية كمقالاته عن الزواج والطلاق بالإضافة إلى المقالة الاجتماعية الإصلاحية التي تهدف الى إصلاح المجتمع الذي انحرف عن الأخلاق وغاص في المعاصي وهذا ما كانت تهدف إليه فرنسا في تلك الفترة، وكذلك المقالة الاجتماعية الانتقادية كمقالته الموسومة بـ (سكوت علماء الدين من الضلال في الدين) وغيرها من الأنماط، وسأعمل هنا على تحليل بعض المقالات الاجتماعية عند الكاتب من خلال شخصية الإمام ومواقفه وآرائه التي يهدف منها إلى بناء المجتمع والنهوض بالأمة. فما هي آراؤه ومواقفه في تلك الكتابات؟.

موقفه من الزواج: إن قارئ مقالات الشيخ الإبراهيمي خاصة: (الزواج، الصداق، الطلاق) يلاحظ أنها تهدف إلى بناء المجتمع والذي يتتبعها يرى أن الإمام الإبراهيمي ينطلق بداية من تلك العلاقات السامية التي جعلها الله سبحانه وتعالى مودة ورحمة بين الزوجين، فالشيخ الإبراهيمي في هذا المنطق يدعو إلى الزواج المبكر في فترة الشباب حيث يقول: « حتى لا يضيع على الجنسين ربيع الحياة ونسماته وأزهاره وبهجته، وقوته ويضيع على الأمة نبات

ذلك الربيع.»[1] هذه المقولة نجد فيها دعوة الإمام الإبراهيمي إلى الزواج في سن مبكرة وهي سن الشباب حتى لا يضيع على الجنسين ربيع الحياة ونسماته، ويضيع على الأمة ذلك الربيع المزهر, وفترة الشباب في كل أمة هي أهم فترة, إذ تمثل قوة الأمة أو ضعفها، لذا فالإمام الإبراهيمي يقف موقف المرشد للشباب, وبما أن الزواج جعله الله تعالى لقاء مودة ورحمة بين الزوجين قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[3] والإعراض عن الزواج في رأي الشيخ الإبراهيمي يضيّع أخلاقا وأعراضا وأموالا, وذلك ما جاء في قوله: « ثم تضيع بسبب ذلك أخلاق وأعراض وأموال.»[4] فالزواج يحفظ للأمة وجودها جيلا بعد جيل، فلا تسير الأمة نحو الاندثار، بل تسير نحو التكاثر والنمو والازدهار عن طريق التناسل، ومنها زيادة السكان بطريقة سريعة، وهذا ما جعل الشيخ الإبراهيمي يدعو إلى الزواج المبكر. ويعِدُّ الإمام الإعراض عن الزواج من أعظم المشاكل والمصائب، فهو تقليد فاسد للحضارة الغربية, وإن انتشر وباء الإعراض عن الزواج والنفور منه فإنه ينتج عن ذلك كما قال: « أعضل المشاكل وأعمقها أثرا في حياة الأمة وأبعدها تأثيرا في تكوينها.»[5]ويبرز الشيخ كذلك، أن من نتائج إعراض الشباب عن الزواج تلاشي الأمة وفقدان كيانها في

[1] محمد البشير الإبراهيمي, **عيون البصائر**، الشبان والزواج، ص323.

[2] الروم21.

[3] البقرة187.

[4] محمد البشير الإبراهيمي, **عيون البصائر**، ص323.

[5] المصدر السابق نفسه، الصفحة نفسها.

عشرات السنين، ومنها فالزواج في نظره يحفظ وجود الأمة بخلاف الإعراض عنه الذي يسفر اندثار الأمة وانقراضها: « فان الأمة تتلاشى في عشرات السنين.»[1] وينظر الشيخ الإبراهيمي أيضا إلى الزواج من الجانب الديني، خاصة وأنه عضو في جمعية دينية علمية، ذلك بأن الإسلام يحث على تحصين الشباب بالزواج، فهو غض للبصر، وحماية للجنسين من الانحلال الخلقي، وهذا ما يراه الإمام الإبراهيمي من نظرة دينية واضحة، تصب في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين الناس.

ويرى الإمام الإبراهيمي من جانب آخر أن الزواج يحفظ للشباب الدين والعرض ويضبط العواطف بين الذكر والأنثى, فلا تمتد العيون إلى محرّم حرمه الله تعالى ولا يتجاوز الجنسان حدود الله، خاصة أن تلك الفترة استعمارية, وقد انتشر فيها الانحلال الخلقي بواسطة ما كانت تدعو إليه الحضارة الغربية من انحلال وتفسخ, والزواج في نظره يقي الدين ويحفظ النسل والأعراض، يقول الإمام الإبراهيمي عن الزواج: « يحفظ على الشاب والشابة دينهما وعرضهما ويضبط عليهما عواطفهما، فلا تمتد العين الى محرم ولا تهفو النفس الى محظور، ولا يتجاوزان بالفطرة حدود الله.»[2]. هذا من نظرته الدينية أما من نظرته الوطنية القومية فالزواج عنده إكثار أفراد الشعب الجزائري وخاصة في فترة الاستعمار حينما نقصت نسبة الزيادة السكانية وهذا نتيجة للسياسة الاستعمارية التي كان هدفها القضاء على أي تحرك لا يصب في صالحها, ونقص السكان يؤدي إلى طمأنة فرنسا لزيادة نفوذها في الجزائر.

[1] المصدر السابق نفسه، ص325.

[2] محمد البشير الإبراهيمي, **عيون البصائر**، ص325.

ومن أجل ذلك يرى الإمام الإبراهيمي أن الزواج هو الحل الأمثل لأزمة تناقص السكان في الجزائر في تلك المرحلة الصعبة . مرحلة الاستعمار . فهو يساهم في زيادة السكان لتغطية نقص الأفراد والسكان, ومن نتيجة هذا كله بناء شباب الغد الذي يكون متشبعا بالقيم الإسلامية وبروح العقيدة، والزواج في نظر الشيخ الإبراهيمي إضافة إلى ذلك تدريب على المسؤولية يهدف إلى بناء شباب قادرين على حمل المسؤولية في سن مبكرة فالعرض والأولاد والمال هم أكبر وأعظم مسؤولية يتحملها الفرد، فيهبّ للدفاع عنهم وخاصة في فترة الاستعمار وهو الهدف الأول للمسؤولية, أما الهدف الثاني فيتمثل في العمل لكسب القوت وتوفير أسباب الحياة، ومنه الحصول على مجتمع عامل، ومجتهد ومجاهد، وهذا مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [1] وفي مقالة اجتماعية أخرى تصبّ في صالح الزواج هي:(الصداق وهل له حد؟) تكلم فيها الشيخ الإبراهيمي عن غلاء المهور والمغالاة فيها، وهذا جانب يدفع الشباب إلى الإعراض عن الزواج فيتحول الإقدام على الزواج عزوفا، ويصير البناء هدما, ولقد جعل الله في الزواج مودة ورحمة بين الأزواج، وهو بناء مجتمع يقوم على تنظيم العلاقات بين الناس، فالمغالاة في المهور في نظر الإمام الإبراهيمي، يساهم في خراب البيوت لأن الزواج هو عمارتها ويتحول بناء الأسرة إلى خراب في قوله: « بما فرضته العوائد من مغالاة في المهور وتفنن في النفقات والمغارم.»[2] ونجد رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يقول في هذا: « أيسرهن مهرا أكثرهن بركة.»[3] ويذهب الإمام

[1] التوبة105.

[2] محمد البشير الإبراهيمي, **عيون البصائر**، الصداق وهل له حد؟، ص225.

[3] حديث نبوي شريف، **صحيح البخاري**.

الإبراهيمي إلى تأكيد عدم المغالاة في المهور بالاستشهاد بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة . رضوان الله عليهم . والتي قام فيها الزواج على شروط يسيرة هدفها على حدّ قول الشيخ الإبراهيمي: « بناء البيوت علة المحبة والتعاون على تربية النسل وتعليمه وتقوية الأمة به.»[1]

ولتأدية هذه الرسالة العظيمة أشرف الإمام الإبراهيمي في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على تزويج عدد كبير من الفتيات على أساس مهور رمزية تمثلت في مصاحف وهدايا رمزية. وتحدث الإمام الإبراهيمي في مقالة أخرى عنوانها (الطلاق) عن هذه الآفة الخطيرة التي تؤدي إلى تدمير الأسرة وتشريد الأولاد، إذ يساهم الطلاق فيها بشكل مباشر, قال الشيخ الإبراهيمي: « المساهمون في الطلاق ماذا جنوا على أنفسهم وعلى أبنائهم وعلى أمتهم.»[2] ورأي الإمام موافق لما نجده في ديننا الحنيف أن أبغض الحلال عند الله سبحانه الطلاق كما قال رسول الله ﷺ: « إن أبغض الحلال عند الله الطلاق.»[3] ومن هنا ركز الإمام البشير الإبراهيمي على بناء الأسرة وحث على الزواج في سن مبكرة, فالزواج عنده يمثل العمود الفقري لبناء المجتمع الجزائري، وخاصة في تلك الفترة الاستعمارية التي كان فيها عدد سكان الجزائر يتضاءل ويتلاشى وهذه نظرة قوية وطنية ثاقبة, أما النظرة الشرعية للزواج فهي كما يرى الشيخ الإبراهيمي يحفظ للشباب عرضهم ودينهم ويغض بصرهم ويحفظ فروجهم ويقي نسلهم وغير ذلك من الخصال الحميدة التي تجعل منهم مجتمعا تقيا نقيا. فلا تمتد العين الى محرم, ولا تنظر إلى محظور, وهو تدريب على المسؤولية فينصح الشباب قائلا: «أيها الشباب إنكم

[1] محمد البشير الإبراهيمي, **عيون البصائر**، مقال الطلاق، ص320-323.

[2] المصدر السابق, ص323.

[3] حديث نبوي شريف.

لا تخدمون وطنكم وأمتكم بأشرف من أن تتزوجوا فيصبح لكم عرض تدافعون عنه، وزوجات تحامون عنهن وأولاد يوسعون الآمال، هناك تتدربون على المسؤوليات، وتشعرون بها، وتعظم الحياة في أعينكم...»[1].

نتائج: من يتمعن في مقولات الإمام الإبراهيمي يجد نفسه ماثلا أمام شخصية عظيمة تستحق التقدير والتعظيم, وهي أهل لأن تكون من ورثة الأنبياء الذين تجشموا الصعاب والحواجز في سبيل الدعوة إلى الله وإعلاء كلمة الحق, وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى, ومن المثير للانتباه أن الإمام ركز على الفئة القوية في المجتمع وهي طبقة الشباب لأنه علم يقينا أنه السبيل الأضمن لتحقيق ما تصبو إليه الأمم والمجتمعات, فقد رأى أن شباب الأمة هو الدم الجديد في حياتها، فمن الواجب أن يصان هذا الدم عن أخلاط الفساد، ومن الواجب أن يتمثّل فيه الطهر والفضيلة والخير. وهذه الطلائع لا تحقّق رجاء الأمة إلاّ إذا انقطعت للعلم، وتخصّصت في فروعه، ثم زحفت إلى ميادين العمل مستكملة الأدوات، تامة التسلح، تتولى القيادة بإرشاد العلم، وتحسن الإدارة بنظام العلم، فتثأر لأمتها من الجهل بالمعرفة، ومن الفقر بالغنى، ومن الضعف بالقوة، ومن العبودية بالتحرر، وتكتسح من ميادين الحق بقايا الدجالين، ومن ميدان السياسة والنيابة بقايا السماسرة والمتجرين، ومن أفق الرياسة بقايا المشعوذين والأميّين.

وسرعان ما يوجه الخطاب إلى المستدمر منبها إياه إلى حقيقته ولا يأبه من الخطورة الناجمة عن مواجهته في كثير من المناسبات, من ذلك أنه أشار إلى أن فرنسا قد جهلت أو تجاهلت أن أبناء الجزائر، كغيرهم من أبناء العروبة،

[1] محمد البشير الإبراهيمي, **عيون البصائر**, الشبان والزواج، ص327.

قد انحدروا من أصلاب قوم كرام يأنفون الذل، ولا يصبرون على الضيم، بل كانوا يؤثرون الموت في عزة وكرامة، على الحياة في ذلة ومهانة.

وما يشد الانتباه ذلك الإيمان الراسخ في نفسية هذا الإمام العظيم الذي يملك عقيدة صحيحة وإيمانا قويا بالله تعالى وتشبثا مطلقا بمبادئه ووثوقه اللامتناهي في تعاليم الإسلام, وبتلك القناعات الراسخة أمكنه الله تعالى من مواجهة أعتى قوة في العالم والتي تمثلت في المستدمر الفرنسي, من ذلك ما جاء عنده في هذه الكلمات: «وإني أومن إيمانًا صادقًا أن لا بقاء للاستعمار في أمة مسلمة؛ لأن مبادئ هذا الدين، وتعاليمه، وتوجيهاته، خير دعامة للحرية، وأقوى حافز للثورة ضدّ الذل والعسف.

إن الدين يأمرنا بالاتحاد، والتعاون، والتآزر، ويفرض علينا القتال والنضال، كلما خِيفَ على حرّيتنا أن تُسلب، وعلى كرامتنا أن تُهْدَر، فكيف يتفق أن يكون للاستعمار بقاء مع هذه المبادئ العظيمة التي قرّرها الدين؟»[1] رحم الله الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وأسكنه فسيح جناته وللمزيد من التعرف على هذا النهل الإصلاحي التربوي الغزير هناك من آثاره الكثيرة ما يشفي الغليل.

المصادر والمراجع:

***المصحف الشريف برواية حفص.**

1. أبو القاسم سعد الله, تاريخ الجزائر الثقافي(1930م-1954م) ط1، دار الغرب الإسلامي: 1998،ج8.
2. أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام الإبراهيمي, ج1. ج2.
3. أنيسة بركات درار, أدب النضال في الجزائر: 1954م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1985م.
4. البخاري, صحيح البخاري, حديث نبوي شريف.

[1] ويكيبيديا "الإخوان المسلمون" الموسوعة التاريخية الرسمية لجماعة الإخوان المسلمين.

5. البغوي, شرح السنة، ج1.
6. حامد حنفي داود, تاريخ الأدب الحديث، تطوره معالمه الكبرى مدارسه، ديوان المطبوعات الجامعية.
7. حنا الفاخوري, تاريخ الأدب في المغرب العربي، دار الجيل, بيروت, لبنان.
8. عبد المالك مرتاض, أدب المقاومة الوطنية في الجزائر(1830م .1962م) دار هومة، الجزائر.
9. عبد الكريم بوصفصاف, جمعية العلماء الجزائريين المسلمين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931م .1954م) دراسات تاريخية وإيديولوجية مقارنة، منشورات المتحف الوطني للمجاهد
10. محمد البشير الإبراهيمي, عيون البصائر، شركة دار الأمة للطباعة والنشر, برج الكيفان, الجزائر:2007م.
11. محمد ناصر, المقالة الصحفية الجزائرية، المؤسسة الوطنية، الجزائر: 1978م، ج1.
12. جريدة البصائر، العدد 214، في07 جمادى الأولى 1372هـ . الموافق ل23 يناير: 1953م.